الطب النبوي و العلم الحديث

د. بن منصور مليكة

جامعة تلمسان

لعل أقدم تاريخ للعلاج هو تاريخ التداوي بالأعشاب و النباتات التي تنمو على سطح الأرض [1].

و مازال التداوي بالأعشاب مستمرا حتى الآن سواء في شكل علاج شعبي نطلق عليه في معظم الأحيان "العطارة" أو في شكل علاج رسمي يختص به علم الصيدلة[2].

و تشير مصادر الطب العربي إلى استخدام العرب للنباتات في العلاج، و إن كان بعضها قد أخذوها عن شعوب أخرى بل أضافوا إليها الكثير، و على سبيل المثال فقد أدخل العرب في الطب نباتات غير معروفة عند اليونان مثل القرنفل و الحنطل، وقد عملوا على تحويل بعضها فاستخرجوا منها مواد مثل الكحول و المستحلبات والخلاصة العطرية[3].

و لقد اعتمد عرب الجاهلية في علاجهم للأمراض على تجارب سطحية تستند إلى التراث الشفوي المنقول عن السلف، و كانوا يعتقدون أن الأرواح الشريرة هي المسؤولة عن الأمراض و الشفاء منها يكون باستعمال السحر و التمائم و التبرك بالعرافين، كما كان الكي عماد معالجتهم لكل مرض معضل [4].

ومع بزوغ نور الهدى، و نزول الوحي على محمد (ص)، الذي و بأمر من خالقه عمل على تنوير و تكوين الإنسان، فكانت أول آية أوحيت إليه "اقرأ بسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربّك الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم" [5]

ثم نزلت آيات أخريات تدعموا إلى العلم، بل و ترفع من شأنه كقوله سبحانه و تعالى:"هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون" [6].

و دعى منقذ الإنسانية إلى العلم فقال (ص):" من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله له طريقا إلى الجنة" [7].

إضافة إلى هذه الدعوة الصريحة للتسلح بالعلم و المعرفة و الفصل بين الحق والباطل، فإن الإسلام حرر العقل و حث الفرد على التفكير و التأمل في خلق السماوات و الأرض، فربط بذلك بين الإيمان و المعرفة الصحيحة و الحجة الدامغة وفي هذا يقول الله سبحانه و تعالى : " إنّ في خلق السماوات و الأرض و اختلاف الليل و النهار، لآيات لأولى الألباب "[8].

عموما النصوص القرآنية تعرضت إلى مواضيع شتى منها الخلق، علم الحيوان، علم النبات، الفلك،...و غيرها من المواضيع الهامة بالنسبة للفرد، و النظريات العلمية الحديثة لم تنقص شيئا مما جاء فيها بل جاءت دليلا على أنها كانت معجزة في زمانها وأنها سبقت العلم الحديث المؤيد بجميع أجهزته المتطورة بحوالي 1370 سنة 5 هجرية [9].

و القران الكريم لم يأتي لتعليم الطب أو غيره من العلوم لكن هذا لا يمنع من كونه تحدث عن أمور هامة تتعلق بالطب، بل أمور سبقت اكتشافات العلم الحديث بعدّة سنين، و الدراسات في هذا المجال عديدة بينت كلها بل برهنت الإعجاز الطبي في القران الكريم [10].

لكن الإشكال الذي يفرض نفسه في هذه الدراسة يتمثل في إثبات أن الأحاديث الطبية النبوية التي جمعت في القرنين التاسع و العاشر ميلادي هي عبارة عن حقائق علمية صالحة لكل الأزمنة.

الأحاديث النبوية التي تثبت صحّتها تبين أن الرسول (ص) حثّ المسلمين على تعلم الطب و الاجتهاد لإيجاد العلاج لكل داء، و لقد روى مسلم في صحيحه

من حديث أبي الزّبير عن جابر بن عبد الله عن النبي (ص) أنه قال :" لكل داء دواء، فإذا أصـــيب دواء الدّاء برأ بإذن الله عــز و جـــل" [11]

و لم يكتف الرسول (ص) بالحث على تعلم الطب بل سجل للتاريخ كلمة فاصلة عن أصناف العلوم عندما قدّم علم الأبدان عن علوم الشريعة فجعله في مقدمة العلوم بقوله :"العلم علمان علم الأبدان و علم الأديان" [12].

و في مسند الإمام أحمد من حديث زياد بن علاقة، عن أسامة بن شريك قال "كنت عند النبي (ص)، و جاءت الأعراب فقالوا : يا رسول الله أنتداوى ؟ فقال :نعم يا عباد الله، تداووا: فإن الله – عزّ و جل- لم يضع داءا إلاّ وضع له شفاء" "غير داء واحد" قالوا: ما هو؟ قال "الهرم". [13]

يأمر النبي (ص) المؤمنين في حديثه الأخير بالتداوي لأن حفظ الصحة واجب في المجتمع الإسلامي، كما يدعوهم إلى التأمل و التفكير و البحث عن الدواء المناسب للداء و التماس الشفاء سنة نبوية و اكتشاف الدواء المناسب واجب بل فرض على المسلم القيام به و البحث عنه.[14]

أما قول الرسول (ص) " لكل داء دواء" فهو تقوية لنفس المريض و الطبيب و دعوة إلى طلب الدواء و البحث عليه. فبمجرد شعور المريض بوجود داء لدائه يزول اليأس من نفسيته و يتعلق قلبه بالحياة أكثر، و تقوى عزيمته و بذلك يتمكن من قهر المرض. و نفس الشيء بالنسبة للطبيب فهو الآخر إذا علم أن للداء دواء قويت و ازدادت إرادته للبحث لإيجاد الدواء.[15]

و في الصحيحين – من حديث أبي المتوكل، عن أبي سعيد الخدريّ: " أن رجلا أتى النبي (ص) فقال : إن أخي يشكي بطنه : و في رواية : إستطلق بطنه، فقال إسقيه عسلا، فذهب ثم رجع فقال: قد سقيته فلم يغن عنه شيئا، و في لفظ : فلم يزده إلا استطلاقا مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول : اسقه عسلا فقال في الثالثة أو الرابعة : صدق الله و كذب بطن أخيك . فسقاه فبرئ." [16]

في هذا الحديث أمر الرسول (ص) أن يسقى المريض بالإستطلاق عسلا ، فسقي بالعسل ، و لم يشف ، فأمر الرسول (ص) بمواصلة الدواء بل أصر على ذلك ، فما سر هذا الإصرار ، و لما لم يشف المصاب بالإسهال في المرة الأولى و الثانية؟ الجواب عن ذلك كله نجده في قوله (ص) " صدق الله و كذب بطن أخيك " هنا بين الرسول (ص) و أشار إلى تحقيق نفع هذا الدواء (العسل) كما أكد أن بقاء الداء لا يعود لقصور الدواء ، و إنما يعود لأمرين :

أوّلها : كثرة المادة الفاسدة في بطن المريض و ثانيهما : هو أن مقدار العسل لم يكن في المرات الأولى و الثانية مقدارا كافيا لمعالجة المرض لهذا أصر (ص) أن يسقى المريض من جديد بالعسل حتى يصل الدواء إلى المقدار اللازم الذي يسمح بالشفاء ، و هذه النقطة من أكبر قواعد الطب[17]

و ممـا استعرضناه يمكننا القول أن النبي (ص) تمكن من تشخيص المرض (Diagnostic)أي عـرف نوع مرض المصاب ، كما أدرك نوع الدواء فأمر به ثم أصر على الالتزام به ، فوضّح بإصراره هذا أن المادة و المقدار في العلاج مهمان.

إذا النبي (ص) بين بهذا الحديث أن الشفاء يحقق بثلاث : التشخيص الصائب ، الدواء اللازم ، ثم مقداره و مدته ، و هذا ما يعرف في الطب الحديث بالجرعة الطبية و مدى مداومتها .

و في الصـحيحين — عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه : " أنه سمعه يسأل أسـامة بـن زيد : ماذا سمعت من رسول الله (ص) في الطاعون؟ فقال أسامة : قال رسـول الله (ص): " الطاعون رجز أرسل على طائفة من بني إسرائيل ، أو على من كان قبلكم ، فإذا سمعتم به بأرض : فلا تدخلوا عليه ، و إذا وقع بأرض و أنتم بها فلا تخرجوا منها فرارا منه " [18]

و في هذا الحديث منع الرسول (ص) المؤمنين من الدخول إلى أرض وقع بها الطاعون وذلك للأسباب التالية:

1- البعد عن الأسباب المؤذية و تجنبها . (الإبتعاد عن استنشاق الهواء المعفن)

2- عدم مجاورة المرضى المصابين بالمرض لتجنب العدوى.

3- الحفاظ على الصحة.

أما نهي الرسول (ص) عن الخروج من الأرض التي وقع فيها الطاعون فذلك لكي لا ينتشر المرض الى أرض أخرى. (19)

هذا الحديث يطابق تماما الحجر الصحي الحديث الذي يمنع قدوم أي شخص من أرض بها الوباء لأنه يكون بمثابة نقل العدوى من دولة إلى أخرى و يمنع القانون الدولي الآن انتقال مريض من أرض بها الوباء إلى أرض خالية منه . (20)

لم يكتف الرسول (ص) بإصدار قانون الحجر الصحي بل رسخه و عمّه ليشمل الحيوان و النبات و في هذا الشأن قال عليه الصلاة و السلام : " لا يورد ممرض على مصح " أي لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل السليمة فتنتقل العدوى إلى الأخيرة.

أما بالنسبة للنبات فالإسلام نهى عن بيع الثمرة ، و شرائها عند وقوع الآفات الخاصة بالثمار و قد ورد في البخاري و مسلم و النسائي : أن رسول الله (ص) قال : " أ رأيت إن منع الله الثمرة بم يأخذ أحدهم مال أخيه؟" إذا لابد من صلاح الثمرة قبل بيعها و شرائها (21).

وبهذا يمكننا القول إن الرسول (ص) سبق بأحاديثه عن الطاعون القوانين الحالية بل جاء بما هو أعم ، و أفضل منها ، و بهذا أكّد للإنسانية أنه لا ينطق عن الهوى .

و ها هو رسول الله (ص) يسبق الطب الحديث و يتحدث عن الحمى ومعالجتها فيقول : "إنما الحمّى ، من فيح جهنّم ، فأبردوها بالماء " (22)

ماذا يقول الطب الحديث في علاج الحمّى؟

1- يوضع المصاب بالحمى في حمام به ماء بارد ، أو يوضع كيس فيه ثلج على رأس و أطراف المريض.

2- يعطى المريض السوائل و الأملاح حتى تقوم الكلية بوظيفتها الفيسيولوجية [23] و الرسول (ص) حين مرض بالحمى استخرج قربة من الماء و صبها على رأسه ، و بذلك تم له الشفاء . فهل هناك فرق بين كيفية علاج محمد (ص) للحمى و كيفية الطب الحديث؟ الجواب لا.[24]

و من معجزات النبي (ص) ، و حكمته في الشفاء قوله : " الشفاء في ثلاث : شربة عسل و شرطة محجم ، و كيّة نار . و أنا أنهي أمتي عن الكيّ " . [25]

لقد سبق و أن تحدثنا عن العسل ، بقي أن نتحدث عن الحجامة و الكيّ ، أما الأولى فهي عملية يتم فيها جدب الدم من جزء معين من الجسم بواسطة كؤوس كانت تصنع قديما من قرون الحيوانات و الخشب و النحاس ، ثم يجرح سطح الجلد بمشرط (موس) ليخرج الدم الفاسد من الجسم [26].

و الحجامة استخدمت في الطب الحديث على نطاق واسع و في هذا الشأن يقول محقق كتاب الطب النبوي لابن قيم الجوزية : " و حتى عام 1960 لم تكن تصدر مجلة طبية أو كتاب طبي في علم وظائف الأعضاء و المجلات إلاّ و للحجامة ذكر و فوائد و استعلامات ، و آلات ، و لقد طورت الشركات المختصة بإنتاج الآلات الطبية وسائل الحجامة ، لا بل وأنتجت حقيبة خاصة لآلات الحجامة ." [27].

و تستعمل الحجامة في الطب الحديث في علاج عدّة أمراض كعلاج ضغط الدم ، و التهاب عضلة القلب ، في علاج أمراض الصدر و الأمعاء و غيرها من الأمراض و في هذا يقول محقق كتاب الطب النبوي لابن قيم الجوزية : " وقع بيدي كتاب صدر عام 1973 عن علاج الروماتيزم المزمن و التهاب المفاصل لمؤلفه Dr Foresterling فوجدته يشير إلى العلاج بالحجامة كمخفف لالام الروماتيزم الشديدة، و يسوق حالة عالجها خفت آلامها بعد الجلسة الثانية ." [28]

ثم يضيف الكاتب فيقول : " ثم ذكرها أستاذ الجراحة بجامعة القاهرة عبد العظيم رفعت في كتابه (الجراحة) ص 1109 في علاج حالات عسر البول الناتجة عن التهاب

الكلية ، و في هذه الحالة تعمل الحجامة على الخاصرة ، و طبعة الكتاب حديثة صدرت سنة 1978 " [29]

أما الكي فكان يستعمل قديما بشكل واسع ، و كان عبارة عن شريحة حديدية تحمى على النار ، ثم توضع على الجلد [30] . و العرب كغيرهم عرفوا هذه العملية و أتقنوها و خير مثال نستشهد به ذكر الكي في الكتاب (القانون) لإبن سينا. [31]

لا يزال الكي يستخدم في الطب الحديث و لكن بوسائل و طرق متطورة (كي حراري ، كي كيميائي ... و غيره) في حالات معينة نذكر منها إغلاق الأوعية الدموية الصغرى بعد حدوث قطع فيها ، و لإزالة الأورام و الخراريج الصغيرة التي تظهر في الجسم . [32]

و يرى خبراء تاريخ الطب أن الكي في الطب الحديث ما هو إلا امتداد للكي القديم و هذا ما يقوله راجي عباس التكريتي في كتابه (الإسناد الطبي في الجيوش العربية الإسلامية): " إن الكي هو الكي سواء تم ذلك بعمود من حديد بعد تحميته في النار أو بقطب حديدي موصل بالكهرباء". [33]

و الرسول (ص) نهى أمته عن التداوي بالكي لأنه لا يريد أن يعالج آلام بعذاب آخر.

و نهي محمد (ص) عن الكي لم يكن نهيا مطلقا لأنه في أول الحديث قال أن العلاج في ثلاث و لم يقل في العسل و الحجامة و هذا ليبين أن الكي يعالج به عند الضرورة فقط . [34]

الأحاديث النبوية الطبية كثيرة لا مجال لذكرها ، و ذكر مطابقة العلم الحديث لها. فما ذكرناه من أحاديث طبية كاف لإثبات أن النبي (ص) طبيب ، ففي حديثه عن العسل بيّنا أنه شخّص المرض ، ثم عرف الدواء اللازم للعلاج، ثم بّين جرعة الشفاء و أثرها فيه ، أما في حديثه عن الطاعون فلقد أصدر قانونا يطابق قانون الحجر الصحي الحديث بل يفوقه لأن الأمي (ص) جعل قانونه يشمل الحيوان و النبات. أما

في حديثه عن الحجامة فالطب الحديث لا يزال يستعمل هذه الطريقة في العلاج و هذا دليل على أنه لا ينطق عن الهوى .

أما في قوله عن الحمى و كيفية علاجها ، يكفينا أن محقق كتاب "الطب النبوي" لشمس الدين أبي عبد الله بن قيم الجوزية بين أن اكتشاف علاج الحمى ينسب للرسول (ص) لا لغيره فقال : " من الطريف أن بعض علماء الألمان و الفرنسيين حاولوا أن ينسبوا هذا الاكتشاف (علاج الحمى) لأنفسهم ، فردّ عليهم الدكتور : كومانوس في محاضرة ألقيت في جامعة مصرية بقوله : لا ينكر أحدا أننا تمكنا من اكتشاف علاجات باهرة ، غير أنه لا يحق لنا –مع ذلك– أن ننسب هذا الاكتشاف لنا، بل من العدل أن نعترف للنبي محمد (ص) بذلك لأنه السابق إليه ،وهو أولى به".(35)

بهذا يمكننا القول أن الأحاديث الطبية التي جاء بها الرسول (ص) تتطابق مع الطب الحديث ، بل تفوقه بالكثير إذا قارنا الوسائل الحالية بوسائل عصر النبي (ص) و إمكانياته ، و بهذا يحق للنبي (ص) أن يعرف بالطبيب ، و إن كان هذا قليل في حقه لأن طبه ليس كطب غيره، فهو طب قطعيّ ، صادر عن الوحي .

الهوامش

(1) W . Van-Zeist & W.A. Casparie - Plants and Ancient man – studies in Palaeoethnoborany A.A.Blkema Rohrtam Boston 1986 P VII.

(2) نبيل صبحي حنا – الطب الشعبي في الخليج – مركز التراث الشعبي – الدوحة –1998 – ص 87

(3) مهدي حمودى الأنصاري – علاج الأمراض بالعقاقير و النباتات الشعبية – مجلة التراث الشعبي – العراق – العدد 3 – 1982 – ص 106 .

Richard Grossinger – Planet Medicine From stone age Shamanism to post in industrial healing - revised Edition Shambhala Boulder & London 1982 p 45.

(4) شمس الدين أبو عبد الله بن القيم الجوزية – الطب النبوي – تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي - دار الأقصر- القاهرة –ط1 –1990 – ص 20- 22 .

(5) سورة العلق – الآيات 1-2-3-4-5

(6) سورة الزمر – الآية 9

(7) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة

(8) سورة آل عمران : الآية 19

(9) شمس الدين أبو عبد الله بن القيم الجوزية – المرجع السابق – ص 82

(10) محمود دياب – الطب و الأطباء في مختلف العهود الإسلامية – المطبعة الفنية الحديثة القاهرة – ط 1 – 1970 ص 82 –38 .

(11) الحديث أخرجه مسلم في كتاب السلام باب "لكل داء دواء " و ذكره السيوطي في " الجامع الصغير " و قال أخرجه الإمام أحمد و مسلم عن جابر ، و أشار إليه بالصحة.

(12) رحاب خضر عكاوى – الموجز في تاريخ الطب عند العرب – دار المناهل للطباعة و النشر – بيروت – ط1 – 1995 – ص 122

(13) الحديث في مسند الإمام أحمد، أخرجه أيضا أبو داود في كتاب الطب ، و بن ماجة في كتاب الطب ، باب ما أنزل الله داء إلا أنزل له الشفاء، و أخرجه الترميذي في باب ما جاء في الدواء و الحث عليه ، و قال أبو عيسى " هذا حديث حسن صحيح" ، و قال الهيثمي في الزوائد " إسناده صحيح ، و رجاله ثقات ".

(14) عبد العزيز ابراهمي العمري – الحرف و الصناعات في الحجاز في عصر الرسول (ص) – مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربية – الدوحة –1985 – ص 243-244 .

(15) شمس الدين أبي عبد الله بن القيم الجوزية- المرجع السابق – ص 87

(16) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب الدواء بالعسل ، و أخرجه البخاري بعده في باب دواء البطون و أخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب التداوي بالعسل ، و أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

(17) عبد المنعم قنديل – التداوي بعسل النحل- دار الشهاب – الجزائر – دت –ط1 – ص 36-39

(18) الحديث أخرجه مالك في الموطأ في كتاب الجامع: باب ما جاء في الطاعون ، و أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، و أخرجه مسلم في كتاب السلام : باب الطاعون و الطيرة و الكهانة ، و أخرجه الإمام أحمد في "مسنده".

(19) Lucien Leclerc Ernest Leroux Editeur Tome 1 Paris 1980 p 32-33

(20) محمود دياب – المرجع السابق – ص 105- 106

(21) المرجع نفسه – ص 144

(22) الحديث أخرجه البخاري في كتاب بدأ الخلق : باب صفة النار، و أخرجه أيضا في كتاب الطب : باب الحمى من فيح جهنّم ، و أخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب لكل داء و دواء ، و أخرجه الترميذي في كتاب الطب : باب ما جاء في تبريد الحمى بالماء و أخرجه بن ماجة في كتاب الطب ، و أخرجه مالك في كتاب العين ، و أخرجه الإمام أحمد في "مسنده"

(23) Domart A. - Imp Herrissey et Jombart Paris 1981 P 423

(24) شمس الدين أ بو عبد الله بن قيم الجوزية – المرجع السابق – ص 113

(25) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الطب : باب الشفاء في ثلاث ، و أخرجه بن ماجة في كتاب الطب : باب الكي ، و أخرجه أحمد في "مسنده".

(26) نبيل صبحي حنا – المرجع السابق – ص 169 .

(27) شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية – المرجع السابق – ص 160- 161 .

(28) المرجع نفسه – ص –163

(29) المرجع نفسه – ص –163

(30) نبيل صبحي حنا – المرجع السابق – ص –144

(31) المرجع نفسه – ص 108 – 109 .

(32) المرجع نفسه – ص –114

(33) راجي عباس التكريتي – الإسناد الطبّي في الجيوش العربية الإسلامية – منشورات وزارة الثقافة و الإعلام بالجمهورية العراقية – سلسلة دراسات (370) – العراق –1984 – ص 136 .

(34) عبد المنعم قنديل – المرجع السابق – ص 36 .

(35) شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية – المرجع السابق – ص 113 .